

الاستشراق والآخر في التراث الجزائري -قراءة حفزية-

Orientalism and the other in the Algerian heritage - excavation reading -

دلال هلال، مخبر السرديات والأنساق الثقافية-جامعة محمد لمين دباغين -سطيف2-الجزائر

da.hellalet@univ-setif2.dz

تاريخ قبول المقال: 08-11-2023

تاريخ إرسال المقال: 02-08-2023

الملخص:

وُلد التصادم الحضاري بين الشرق و الغرب اختلافا في الرؤى و تباينا في المواقف، و طفت صراعات و احتدمت مجابهات أسفرت عن شنّ حرب استباقية تنهك قوى الشرق وتحول دون بروزه وتجردّه من أسباب التمكّن و التمكين إذ أباح هذا الغرب لنفسه كلّ الوسائل لنيلها وكان من بينها حركة الاستشراق، ولا غرو أنّ الاستشراق الغربي نشط وازدهر أكثر بالجزائر، كونها من أكثر دول الشرق التي ربطتها علاقات بفرنسا، باعتبارها مستعمرة زمن الاحتلال..فشدّها التراث الجزائري الذي يعدّ سرّ وجود الأمة وبقائها، فسعى المحتل بإيعاز من المستشرقين ضرب هذا التراث ونسف ماضيه حتى يسهل إذعانه واقتياده.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق -الاستشراق الفرنسي-التراث-التمثيلات الثقافية

Abstract: The civilizational collision between the East and the West generated a difference in visions and a divergence in attitudes, and conflicts emerged and confrontations raged, resulting in waging a preemptive war that exhausts the forces of the East and prevents its emergence and strips it of the reasons for empowerment and empowerment, as this West allowed itself all means to obtain it, and among them was a movement Orientalism, and it is not surprising that Western Orientalism was more active and prospered in Algeria, being one of the countries in the East that had the most relations with France, as a colony at the time of the occupation..and it was attracted by the Algerian heritage, which is the secret of the nation's existence and survival. Obedience and lead him.

Key words : Orientalism-French Orientalism-Heritage - Cultural representations.

مقدمة:

يحتاج الباحث في مجال الاستشراق إلى جهد مضني و محزون ثقافي هائل والدراية بلغات مختلفة للبحث فيه والتأمل في إشكالاته التي يطرحها كحركة فكرية، باعتبار أن الاستشراق ليس وليد الزمن المعاصر إنما هو امتداد وتراكم معرفي يزيد عمره عن ستة قرون من البحث والتأليف عن الإسلام وعن الإنتاج الحضاري للشرق عموماً، فالحضور الاستشراقي أمر لا ينكره باحث جاد، والذي سرعان ما يكتشف ذلك الصدام الحاصل بين الشرق والغرب باعتبار أن الكثير من المستشرقين يرون في الشرق الندّ الحضاري للامتداد الغربي.

الأمر الذي قاد إلى تباين الرؤى حول حركة الاستشراق من طرف الشرقيين تحديداً فبين مفرط في الثناء عليه باعتباره قدم خدمات جليلة للشرق من خلال التعريف بمميزاته وخصائصه وتقديمها للباحث الغربي، وبين رافض لهذه الحركة المعرفية باعتبارها حركة تشوّه الشرق وتراثه، فبين هاتين الرؤيتين ظهر موقف ثالث يأخذ الاستشراق بنوع من التحليل والتركيب العقليين آخذاً من نصوصه الشيء الإيجابي الدافع نحو التلاحق والانسجام بين الشرق والغرب رافضاً كل النصوص المستقصّة للحضارة الإسلامية وللشرق عموماً.

ولأن الجزائر ليست استثناءً فقد ازدهرت حركة الاستشراق بها باعتبارها مستعمرة فرنسية قديمة ومن أكثر الدول التي ارتبطت بفرنسا، فشّد التراث الجزائري المتنوّع المستشرقين الفرنسيين فكانت الدراسات حوله بغية ضربه والاستقصاء منه بهدف تسفيفه وبالتالي إذعانه وتسهيل انقياده، وفي خضمّ هذه الصراعات الفكرية والتّخوم المعرفية وجب علينا طرح إشكال محوري هام : كيف قرأ المستشرق الفرنسي التراث الجزائري ؟ وكيف استطاع هذا الآخر/التراث الجزائري الانفلات و التصدّي للمستشرق الفرنسي و الحفاظ على هويّته؟

تحتّم علينا هذه الدراسة التحليلية اتباع المنهج التاريخي لاستقصاء مفهوم الاستشراق واستجلاء مختلف تمثالاته.

المبحث الأول : الاستشراق :حفر في المفهوم

قد يبدو أن الغرض من تعريف كلمة الاستشراق باباً من أبواب التكرار، فقد خاض فيه المختصون وامتلأت به الكتب، لكن ليس من السهل على الباحث التعريف بالأفكار العلمية المجردة باعتبار أن المعرفة دوماً قابلة للتطور، ولأن هذا التطور المستمر يكشف عن جوانب دقيقة من قبل تكون ناقصة غير مستوفية للغرض، فالاستشراق أضحى اليوم علماً له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته ودراساته ومؤلفاته،

وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته¹، وعليه كان لزاماً على أي باحث فيه أن يُعنى بتجديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة ومراحله وأطواره وتطولاته.

المطلب الأول: الحد اللغوي للاستشراق

إن الكلمة في مفهومها اللغوي لم ترد في المعاجم اللغوية المختلفة²، فالاستشراق مصدر من الفعل السداسي استشرق و أصله (ش ر ق) والألف والسين والتاء إذا سبقت الفعل الثلاثي أفادت الطلب وعلى هذا فالاستشراق أي طلب الشرق³، والشرق أو الجهة التي تشرق منها، و المشرق مثلاً، وفي النسبة: مشرقى (بفتح الراء وكسرها) والشرقة والمشرقة (مثلة الراء) موضع القعود في الشمس بالشتاء، وتشرق: أي جلس فيه. وأشرق: دخل في وقت شروق الشمس، وأشرقت الشمس: أضاءت⁴.

وعلى هذا فمعنى الكلمة يدور حول: جهة الشروق، والضوء والذي هو يتبادر إلى الذهن عند ذكر الشمس، فسمي الاستشراق بذلك لأن أهله في الغرب طلبوا علوم المسلمين والعرب، وبحثوا في الإسلام.

المطلب الثاني: الحد الاصطلاحي للاستشراق

اختلفت معاني الاستشراق تبعاً للهدف الذي وجّه أصحابه، ومن هذه التعريفات والمعاني للاستشراق ما يلي:

- هو أسلوب غربي لمعرفة العالم الشرقي عن طريق البحث أو التخصص في الشرق، بدراسة علوم وآداب وديانات وتاريخ شعوب الشرق، للسيطرة عليه⁵.

أما تعريف الموسوعة الميسرة فهو: "تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين، وثقافتهم، وتاريخهم. ويقصد به: ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما⁶.

المبحث الثاني: نشأة الاستشراق الفرنسي

نشأت العلاقة بين فرنسا والعالم الإسلامي منذ فتح المسلمين لمقاطعات فرنسية ثم استمرت أثناء وجود المسلمين في الأندلس، و في الحروب الصليبية تم إنشاء طرق للتجارة، و تبادل السفراء ثم احتلال شمال إفريقيا، و حملة نابليون على مصر ، وفتح قناة السويس و الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان وكانت تلك العلاقات متعددة متنوعة متعاقبة اختلطت فيها الحرب و السلم و التجارة و الثقافة

جميعاً⁷، و في عام 1553م قام فرانسوا الأول بالمحاولات الفرنسية الأولى لتدريس العربية واللغات السامية الأخرى حيث أنشأ معهداً بباريس، وأعدّ فيه منبراً لتدريس العربية واليونانية واللغات السامية الأخرى، وقد ضمت فرنسا أول ترجمة فرنسية لمعاني القرآن في العصور الوسطى، وهي ترجمة قام بها انجليزي وألماني، واستعانوا باثنين من العرب، وتمت عام 1143م، برعاية بطرس المحترم رئيس دير كلوني بجنوب فرنسا وهو من أهم الأديرة في أوروبا، وكانت ترجمة رديئة كثيرة الأخطاء.

أما في عصرنا المعاصر فقد ارتبط الاستشراق وخاصة الأعمال الفرنسية منه في الجزائر بدعم الجهود الاستعمارية، حيث تضمنت الحملة الفرنسية على الجزائر عدداً من المترجمين والكتاب والفنانين المهتمين بحياة الشرق، كما مثل انعقاد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر عام 1905 الانطلاقة الحقيقية للاستشراق في الجزائر.

وعملت الإدارة الفرنسية بخبرائها وفنانيها ومترجميها إلى معرفة الحياة العربية الإسلامية بمختلف نواحيها في المجتمع الجزائري، وقام المستشرقون بأعمال كثيرة في المجال الديني واللغوي والآثار والعادات والتاريخ، وترجمة النصوص الدينية، ودراسة العربية والبربرية بمختلف لهجاتها، وتاريخ الجزائر والمغرب العربي عموماً، والفلكلور، واهتموا بالإسلام كدين وعقيدة وكتصوف وطقوس ومرابطين، كما كانت اهتماماتهم في الغالب موجّهة حسب توجيهات الإدارة الاستعمارية وحاجة الدولة الفرنسية.

ويمكن القول أن الاستشراق في الجزائر أثناء بداياته كان يهدف إلى التعرف على الحياة العامة في المجتمع الجزائري العربي المسلم، حيث كان استكشافياً، لكن سرعان ما أصبح الاستشراق أكثر تنظيماً وتخطيطاً وأنتج أعمال ضخمة في كل الموضوعات والمجالات تقريباً.

المطلب الأول: بداية الاستشراق في الجزائر

يعدّ الاستشراق الفرنسي في الجزائر أهم مظاهر الغزو الثقافي والذي شكل جزءاً مهماً من الاستعمار بمختلف أشكاله، نظراً للاهتمام الفرنسي بالمجتمع الجزائري وخصائصه ومكونات الهوية لديه والتي شكّلت مبعث الثورات والمقاومات الشعبية، وتبلور هذا الاهتمام من طرف الإدارة الاستعمارية في الدراسات العربية والإسلامية مع أعمال المستشرقين.

وكانت مدرسة الجزائر محطة بارزة في مسيرة الاستشراق بالجزائر، وعبارة مدرسة الجزائر حسب أبو القاسم سعد الله أطلقت عند البعض على تأثير الجزائر في الأدب الفرنسي وتلويحه بلون بيئتها ونكهتها، ولكن هنا تستعمل العبارة للدلالة على انطلاق الاستشراق الفرنسي والدراسات العلمية خاصة بعد عام 1879، أين تم إنشاء مدرسة الآداب العليا والتي أصبحت كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1909. فهي مدرسة فكرية أثرت في الفن والأدب⁸ واللغة والتاريخ والعلاقات بين الجزائريين والفرنسيين، وفوق ذلك

كله أطلقت الاستشراق الفرنسي من عقاله، فانطلق يدعم الجهود الاستعمارية في الجزائر وفي باقي دول المغرب العربي.

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالجزائر قبل الحملة الفرنسية سواء من الفرنسيين أو الأمريكيين أو باقي الدول الأوروبية، غير أن تأزم العلاقة بين الجزائر وفرنسا عام 1827، وتحضيرها لحملة على الداي حسين، جعل المستشرقين الفرنسيين يركزون اهتمامهم ويترجمون بعض الأعمال عن الجزائر لمستشرقين أمريكيين وأنجليز.

وتضمنت الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830 عددا من المترجمين والكتاب والفنانين ورجال الدين والمهتمين بحياة الشرق عموما، ولعل نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر جعلت كلا منهم يتفرغ لعمله حسب تخصصه. خاصة في ظل حاجة الإدارة الاستعمارية لمترجمين يعملون معها، لتسهيل التواصل مع السكان وفهم المجتمع الجزائري، وشكلت مدرسة اللغات الشرقية في فرنسا المنبع الذي يمد الإدارة الاستعمارية بالمترجمين والمختصين في مختلف المجالات خاصة مع ظهور تلك الحركة التي اهتمت بجمع المخطوطات والكتب النادرة التي تخص العهد العثماني في الجزائر وما قبله، ورافقتها حفريات لآثار الرومانية وغيرها.

المطلب الثاني: الاستشراق ومراحله

إن التأريخ للاستشراق في الجزائر لا يمكن حصره في الفترة التي تلت الاستعمار الفرنسي، بل يمكن القول أن هناك اهتماما كبيرا للمستشرقين بالجزائر قبل ذاك الألمان منهم والانجليز والبرتغاليين والأسبان، وإذا ما عدنا إلى عام 1827 لوجدنا أن الفرنسيين قاموا بترجمة أعمال المستشرقين الأوروبيين والأمريكيين عن الجزائر إلى اللغة الفرنسية، وهنا لعبت مدرسة اللغات الشرقية دورا مهما، واعتبر سيلفستر دي ساسي زعيم الاستشراق الفرنسي في تلك الفترة، وقد تخرج على يديه جيل من المستشرقين في فرنسا وأوروبا، وبدخول فرنسا أرض الجزائر ومحاولة تأسيسها لإدارة مدنية تتحكم في الجزائريين وظفت المترجمين من يهود الجزائر، والذين كانت تلك وظيفتهم حتى قبل دخول الفرنسيين وأيضا من الأوروبيين الذين تخرجوا من مدرسة اللغات الشرقية وتوسع توظيفهم بتوسع الإدارة الاستعمارية في الجزائر، كما أنهم قاموا بجمع المخطوطات والاستيلاء على المكتبات⁹، لذلك يمكن القول أن الانطلاقة الحقيقية للاستشراق الفرنسي بدأت بحركة الاستعمار وتوسعه في الجزائر، ولعل ما يميز الاستشراق الفرنسي في الجزائر استعمال اللهجة الجزائرية وليس العربية الفصحى لاعتبارات استعمارية توسعية بحتة، وقد مر الاستشراق في الجزائر بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: من بداية الاحتلال 1830 إلى إنشاء المدارس العليا سنة 1879.

تميزت هذه المرحلة بجهاز ترجمة قوي على يد العسكريين الفرنسيين في معظم الأحيان، وهناك مترجمون وإداريون وآخرون قضائيون، وقد نتج عن أعمال هؤلاء الكثير من النصوص والعرائض والوثائق التاريخية، واشتغل المستشرقون في اللجان العلمية والجمعيات المتخصصة، ونشروا أبحاثهم للتعريف بالشعب الجزائري المحتل في مختلف عصوره ومظاهره.

وأثناء هذه المرحلة زار الجزائر عدد من الأدباء والمفكرين والفنانين الفرنسيين المهتمين بحياة الشرق، وكانت زيارتهم بدعم وتشجيع من الحكومة الفرنسية نفسها، حيث ارتبط الاستشراق منذ البداية بإدارة الاحتلال الفرنسي وتوجهاته الاستعمارية¹⁰.

المرحلة الثانية: من 1879 إلى 1930.

في هذه المرحلة أدخلت العديد من الإصلاحات في فرنسا على التعليم العالي، وأعيد تنظيم جامعة السوربون، كما ظهرت مدرسة دوركايم في علم الاجتماع والاستشراق، وأنشئ كرس ي لتعليم اللغة العامية الجزائرية في باريس وكرس ي لتعليم اللغة الأمازيغية، وظهرت كلية الآداب عند تأسيس جامعة الجزائر في 1909، كما تم انعقاد المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين تحت إشراف رينيه باصيه عميد كلية الآداب وعميد المستشرقين في الجزائر حينذاك.

وفي 1906 ظهرت مجلة العالم الإسلامي برئاسة ألفريد لوشاتليه الذي سبق له العمل في الجزائر كرئيس للمكتب العربي العسكري في الجنوب، كما انتعشت حركة الاستشراق الفرنسي في جميع المستعمرات وغذته تلك الكراس ي التي فتحت بمختلف اللغات واللهجات في كلية الآداب بجامعة الجزائر.

المرحلة الثالثة: من 1930 إلى الاستقلال 1962

ابتدأت هذه المرحلة بالاحتفالات الضخمة التي أقامها الاستعمار الفرنسي بمناسبة مرور مائة سنة على دخوله الجزائر، وهي مرحلة امتازت بالتوسع في إنشاء المعاهد المتخصصة في الاستشراق كمعهد الدراسات الشرقية، ومعهد الدراسات الصحراوية، ومعهد الدراسات العربية، وتحويل المدارس الشرعية الثلاث إلى ثانويات مزدوجة، وبقاء الصلة الوثيقة بين الاستشراق والسلطة الاستعمارية خاصة في ظل ظهور نخب جديدة ظهرت في القيادات السياسية في المستعمرات.

ويبدو أن الاستشراق الفرنسي في الجزائر قد عرف هزة عنيفة مع الحرب العالمية الثانية، وثورة الجزائر، والحرب الباردة، ومن أبرز المستشرقين في هذه المرحلة هنري بيري، وليفي بروفنسال وكانتيو،

وروبر برونشفيك¹¹

المبحث الثالث: أطروحات المستشرقين في الجزائر

الفرنسيون لم يكتشفوا الجزائر باحتلالها سنة 1830، فقد كتبوا عنها في عدة مناسبات وكانت بينها وبينهم معاهدات، ومبادلات تجارية، وتبادل للأسرى، وجوسسة وتقارير وقناصل، ورحلات...، ولم يكن خفيا أطماع الفرنسيين أو غيرهم من الأوروبيين في الجزائر، فحاولوا التعرف عليها من خلال الكتابة عن السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، الدين والثقافة، والتاريخ، والتربية والتعليم والمؤسسات التي تحتضنها، وقد راجت في بدايات الاستعمار الفرنسي للجزائر كتب تشرح للسياح كيفية الحياة في الجزائر ونمط عيش سكانها تشجيعا لسياسات الاستيطان الأوروبي فيها. لكن ارتباط هؤلاء المتقنين والمستشرقين بالإدارة الاستعمارية كموظفين فيها أو كحاملين لتلك الإيديولوجية التوسعية، استطاعوا أن يروجوا لأطروحات من شأنها التمكين للاستعمار الفرنسي في الجزائر، أطروحات استهدفت المقومات الأساسية التي تكون المجتمع الجزائري، كالدين واللغة، والتاريخ، والموقف من التحضر والتمدن، وقضايا المرأة.

لقد جاء الفرنسيون إلى الجزائر بمجموعة من العقد التي كانت متراكمة لدى الأوروبيين من العصور الوسطى حول العرب والمسلمين والشرق والشرقيين بصفة عامة، وكانت عقائد الحروب الصليبية ما تزال حية في أذهانهم وكتبهم، من التواجد الإسلامي في الأندلس إلى سطوة العثمانيين على أوروبا الشرقية والجزائر. لقد كان احتلال الفرنسيين للجزائر أكثر من انتصار بعد فشل الحملة على مصر وتحجيم الخريطة الفرنسية بعد مؤتمر واترلو، فتصرفات الفرنسيين في الجزائر مدنيين وعسكريين تدل على شذوذ غريب، وعلى رغبة عميقة في الانتقام من الماضي كله، لما حمله من انتصارات للعرب والمسلمين في بلادهم وانكسارات لحروبهم الصليبية.

ففرنسا كانت تزعم أنها حاملة لرسالة حضارية جاءت لتنتشرها في المجتمع الجزائري الذي تخلف عن الركب بسبب التواجد العثماني، وأعلنت الجزائر مملكة عربية تابعة للمملكة الفرنسية وحتى بعد سقوط النظام الملكي في فرنسا بقي ساستها يرددون مقولة الجزائر فرنسية، فما هي يا ترى هذه الأطروحات التي صاغها المستشرقين؟ وهل ساعدتهم في رسم سياسات تمكّن لهم تحقيق الغايات الاستعمارية؟

المطلب الأول: اللغة

هدفت فرنسا من خلال أطروحاتها الاستعمارية إلى إلحاق المجتمع الجزائري بالمجتمع الفرنسي وجعله امتداد له، وعلمت من خلال مستشرقها أنه لن يتأتى لها هذا إلا بإحلال الفرنسية محل العربية والمسيحية محل الإسلام، كي يتناسق كلا المجتمعين الجزائري والفرنسي في المقومات والخصائص.

فعملت منذ الوهلة الأولى على محاربة اللغة العربية تارة من خلال التضييق على التعليم القرآني، ومنع الأهالي من تدريس أبنائهم وهدم المساجد والزوايا وتحويلها إلى كنائس ومستودعات وتكنات، وتارة أخرى من خلال فتح المدارس الفرنسية أمام الجزائريين من أجل تعليمهم اللغة الفرنسية، وجعلها لغة الإدارة والتواصل في المجتمع الجزائري، وكانت الوظائف المتاحة أمام الجزائريين يشغلها من يتقنون التواصل بها¹².

لقد ادعى المستشرقون الفرنسيون ومن وراءهم الإدارة الاستعمارية أن اللغة العربية هي لغة تخلف ولا تصلح لأن تكون لغة الحضارة والصناعة كما الحال مع الفرنسية، ولكي تؤدي فرنسا رسالتها الحضارية لا بد من جعل الفرنسية لغة الأهالي. ويقول أحد المستشرقين: "لقد كان على السادة أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة لفهم السكان المحليين، ولا يمكن مطالبة المنهزمين (الجزائريين) بتعلم لغة الغزاة فوراً".⁵ لقد كانت اللغة العربية ونشرها بين الضباط والعسكريين الفرنسيين وسيلة قوية للتقارب بين الأعراق التي يبعدها عن بعضها البعض الأصل والدين والعادات، كما نجد أن الاستعمار الفرنسي حاول استمالة البربر من سكان الجزائر، وراح يروج لأطروحات تلغي تاريخ البربر من المشرق في نشر الحضارة الإسلامية في الأندلس ووسط فرنسا نفسها، فتارة تجعلهم الدراسات التاريخية وعلماء الآثار مسيحيي الديانة والإسلام غريب عنهم، وأنهم في عاداتهم وتقاليدهم أقرب إلى المسيحية منه إلى الإسلام بحكم اتصالهم بالحضارة الرومانية، وتارة أخرى تنسب أصولهم إلى الساميين، وكلها محاولات استعمارية لصياغة أطروحات تفرق بين مكونات الشعب الجزائري، لتمكّن لسياسة الاستعمار الفرنسي.

"...البربر كانوا ومازالوا مسيحيين، وإن دعاة المسيحية الذين بثتهم فرنسا بين القبائل البربرية، إنما هم وعاظ يذكرون إخوانهم البربر بدينهم القديم، لا دعاة لدين جديد أو معتقدات غريبة"¹³ ومن الناحية الاجتماعية حاول المبشرون العزف على وتر العرف القبلي، حيث اعتبروا أن أعرف سكان منطقة القبائل مستوحاة من القانون المسيحي، وبعيدة عن الإسلام، وقوانينهم الاجتماعية هي أقرب للقوانين السائدة في فرنسا، لكي يقبلوا بالقوانين الفرنسية على حساب الشريعة الإسلامية، ويقول أحد المستشرقين: "سكان فرنسا الإفريقية . الجزائر. على أنواع مختلفة، فمنهم البربر وهم أقرب الناس إلى فرنسا، ومنهم العرب وهم أقل استعداداً للتقدم والتطور"¹⁴

المطلب الثاني: الدين

تناول المستشرقون من علماء أوروبا الإسلام والمسلمين بالدراسة والتحليل من نواحي مختلفة، وارتبط هدفهم في ذلك أول الأمر بالدافع الديني من طرف الكنيسة ورجالها قصد التنقيف، وتصوير

المسلمين والإسلام على أنهم أعداء للمسيحية، غير أن هذا الدافع سرعان ما تحول إلى سياس ي استعماري تعكسه تلك الحروب الصليبية ضد الإسلام وبلاد المسلمين، والاستشراق نفسه لم يزدهر إلا بتوسع الحركات الاستعمارية في أوروبا وتناميها، ولعل ما يلاحظ من اهتمام المستشرقين بالجانب الديني هو اهتمامهم بالتصوف في الإسلام وتطوره ومؤسساته، وهو اهتمام ليس بريئاً بالمرّة، لأنهم بعد أن بسطوا سيطرتهم العسكرية على الدول الإسلامية أخذوا يوجهون بعض الزوايا والطرق الصوفية ويتحكمون فيها من أجل التمكين للسياسات الاستعمارية، مثلما حدث مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

ونجد أن فرنسا قد تعهدت عند إمضاء معاهدة التسليم في 05 جويلية 1830 أن تحترم الدين الإسلامي، وتعمل على صيانة حرية ممارسة الشعائر الدينية للجزائريين، لكن سرعان ما ضربت هذه المعاهدة عرض الحائط وتكرّر لها المسؤولون الفرنسيون، فهم من جهة حاربوا الدين وهدموا المؤسسات الدينية وصادروا أموال الوقف وجففوا منابع تمويلها، ومن جهة أخرى أضعفوا اللغة العربية والتعليم الديني وضيّقوا عليه واستمالوا بعض الزوايا وشجّعوا على الدجل فيها والسحر والشعوذة، وأصبح الدين ما هو إلا الاعتقاد في بركة الأولياء.

المطلب الثالث: الحضارة

يقول دي طوكفيل أن المجتمع الجزائري كان نصف متحضر، وأن له حضارة متخلفة وغير متقنة، والدليل على ذلك أنه كان يتمتع بمؤسسات كثيرة خيرية وتعليمية، كان هدفها سد حاجات اجتماعية وتوفير خدمة التعليم، غير أنها كانت خدمات رديئة وجعلت من المجتمع الجزائري مجتمعا متخلفا كونها نشأت تحت الإدارة العثمانية المتخلفة بدورها، وأن الإدارة الفرنسية أكثر تمدنا وتستطيع بعث روح حضارتها في المجتمع الجزائري¹⁵.

وذهب غوتيه إلى أنه لا يمكن لنا أن نتصور استقلال الجزائر عن فرنسا، لأن تاريخ الجزائر منذ ألفي سنة يشهد على تبعيتها لدولة خارجية، ومن جهة أخرى اعتماد الجزائر على الزراعة يجعلها في حاجة للأسواق الفرنسية، كما أن قرب الجزائر من مرسيليا دليل على هذا الرابط القوي بين الطرفين، فالاندماج والتكامل الاقتصادي قضية حتمية في نظره.

وقد تحدث جاك بيرك. قائلا: إن عهد الاحتلال الفرنسي بالنسبة للجزائر هو عهد التحرر الحضاري من وصاية الشرق ودخولها بفضل فرنسا وصرخة فارسها المجهول تحت وصاية الغرب وبالأخص

تحت مظلة سكان بلاد الغال، حيث تفقد الجزائر هويتها وتندمج اندماجا كليا في شعب آخر فرض نفسه عليها بمختلف الوسائل¹⁶.

والذي دعانا لتعلم العربية ليس فقط لحكم الجزائر، ولكن لإدخالهم بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجات الجزائريين ورغباتهم وأحلامهم لكي: "نجعلهم يتذوقون تحسيناتنا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لهم وممدّنين لبلادهم، وليس كغزاة تساندتهم الأسلحة"¹⁷.

ويضيف المستشرق الفرنسي ماشويل أستاذ كرس ي اللغة العربية في جامعة الجزائر سنة 1875: "أن دراسة أدب الجزائر سيؤدي إلى معرفة عبقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر، ومعرفة كتبهم في العلوم والتاريخ والفقه والدين، ومن ثمة معرفة أصولهم وأفكارهم وتقاليدهم"¹⁸، إذن هي مقولات تعكس نظرة فرنسا الاستعمارية للمجتمع الجزائري من خلال مستشرقها، مدعية أن الماضي العربي الإسلامي كان سببا في تخلف الجزائريين، مقسمة مكونات المجتمع الجزائري بين عرب متخلفين غير قابلين للتحضر وبربر يمكن لهم أن يكونوا متمدنين إذا ما اخذوا بأسباب الحضارة الفرنسية.

المطلب الرابع: المرأة

ركز المستشرقون الفرنسيون الاهتمام بالمرأة الجزائرية المسلمة وحاولوا إبعادها عن الإسلام بداعي الحضارة، ونظر إليها بعض المستشرقين إلى أنها محرومة نتيجة تطبيق العرف عليها، ورآها بعضهم أنها قابلة للاندماج الذي ينشده الفرنسيون، واشتهرت ماري بوجيجا في كتاباتها بدعوة المرأة الجزائرية بعبارة أخواتي المسلمات، إلى التخلص من التقاليد البائدة، تلك التقاليد التي تركتها في الحضيض¹⁹.

معظم كتابات المستشرقين تطعن في تعاليم الإسلام من خلال تصوير وضع المرأة الجزائرية، على أنها قدرية غارقة في الخرافات، ومستسلمة راضية بحكم القضاء عليها، وهي ضحية التخلف والامية التي يعيشها المجتمع الجزائري، فهي لعبة الرجل التي كان يشتريها بنقوده كما يشتري البهائم والبضائع، وضحية الإسلام القاسي الذي جعل الرجل قواما على المرأة وأباح تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد الرجل وحده، ففرض قيودا غطاها الحجاب والعفاف، فالمرأة الجزائرية في كتاباتهم ذات نمط واحد في المدينة والريف، هي آلة نسل وخادمة بيت وجالبة حطب وماء، المحرومة من كل الملذات، فلا أفراح ولا ملاهي ولا مراقص، إن شباب المرأة يزوي بسرعة ويدهمها الهرم وهي في الأربعين فتترهل وتموت قبل الأوان²⁰.

وانطلاقا من هذه الصورة ظهر تيار فكري وأدبي يدعوا لمحاولة إنقاذ المرأة الجزائرية، والحقيقية أن تغيير أي مجتمع إنما يمر عبر تغيير المرأة فيه، ولم يقف الوضع عند حد الكتابات فقط بل تعداه إلى

إرسال النساء الأوربيات التي حولت دروس الطرز والخياطة إلى دروس للتصير والترقية الحضارية والإدماج الاجتماعي.

المطلب الخامس: قانون الألقاب

كانت الألقاب في المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي ثلاثية التركيب الابن الأب والجدوفي بعض الأحيان خماسية تضم المهنة والمنطقة السكنية، كما أن أغلبها حمل دلالات دينية، تشير إلى الانتماء العربي الإسلامي للمجتمع الجزائري، أو ذات دلالات تاريخية تشير إلى الفترات التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري وإلى الشعوب التي تواصل معها أو كان معها في عدا، وبصدور قانون الحالة المدنية للأهالي الجزائريين في 1882 والذي يقضي باستبدال الألقاب الثلاثية للجزائريين بألقاب مشينة ومذلة، كان الهدف منها الاستيلاء على ملكية الأراضي، وتفكيك نظام القبيلة في المجتمع الجزائري، وقطع الصلة بين الشعب الجزائري وماضيه الحضاري العربي الإسلامي، بإبرازه كفرد معزول عن الجماعة، وتغيير أساس نظام الملكية، وتعويضه بالقانون الفرنسي، والذي يخاطب الشخص بلقبه وليس باسمه²¹.

وهذا القانون لم يأتي من فراغ وليس صنيع السياسيين بقدر ما هو وليد الدراسات التي قام بها المستشرقون والباحثون الفرنسيون في مختلف المجالات على المجتمع الجزائري آنذاك، خاصة بعد سنوات المقاومة الشعبية التي لم تنقطع طيلة أربعة عقود في كافة ربوع الوطن، فتوصل المستشرقون أن قوة المجتمع الجزائري في تمسكه بدينه ولغته وانتماءاته القبلية وأن الأرض هي ما تؤكد أواصر الانتماء للفرد²²، وعليه جاء هذا القانون والذي كان هدفه الرئيس ي طمس هوية الشخصية الوطنية، ومحاولة تحقير وإذلال الجزائريين بألقاب مذلة ومهينة ومشينة تحمل أسماء للحيوانات وصفات لها، وأخرى للمهن وأطراف الإنسان وأعضائه، وأسماء للأماكن والأشجار وغيرها.

فتغيير الألقاب كان جزءا من مخطط استعماري استهدف النيل من الهوية الوطنية وتغيير الطابع الاجتماعي للمجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا قريبا، مرتبط بالعائلة والأرض والماضي الحضاري العربي الإسلامي، لقد استهدف تفكيك العائلة ومن ثم القبيلة ومن ثم نزع ملكية الأراضي بكل سهولة.

المبحث الرابع: تمثيلات الاستشراق في التراث الجزائري

المطلب الأول: اللجان العلمية

بدأ عمل اللجان العلمية للمستشرقين في الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر وإلى غاية استقلالها، فقد عملت في كل مجالات البحث خاصة في مجال الأدب الشعبي مما ساعد على إنتاج

وتأليف وإخراج نصوص أدبية، وتشمل هذه الأعمال مشروع إنتاج قصص شعبية تتوافق والرؤية الاستعمارية وكذا بحوث بجامعة الجزائر بمختلف كلياتها ومعاهدها، ولجنة دراسة الأوضاع الإسلامية، ولجنة ترجمة الكتب من العربية إلى الفرنسية²³.

المطلب الثاني:الجمعيات المتخصصة

رغم انتمائها للإدارة الفرنسية وعملها تحت إشرافها إلا أن الجمعيات المتخصصة في البحث العلمي وحقله قدمت إضافة كبيرة في الكشف عن الأدب الشعبي الجزائري وخصائصه، غير أنها كانت ضيقة الأفق جانبها الموضوعية في كثير من الأحيان كونها تعكس وجهة نظر عنصرية ، إذ كانت تركز التفوق الحضاري الفرنسي وتقوم على النظريات الانثروبولوجية والدراسات العرقية. هي جمعيات درست المجتمع الجزائري في تنوعه الثقافي، البربر من منطقة القبائل والشاوية إلى الطوارق في الصحراء وبنى ميزاب وعادات وتقاليد كل منطقة، والنسيج الاجتماعي للمجتمع الجزائري، والدين والتصوف ومكانة الشيوخ والأولياء الصالحين، والأدب الشعبي والشعر الملحون، ونمط العيش واللباس والأكل والأفراح وإحياء المناسبات الدينية.

كما ظهرت جمعيات متخصصة في دراسة التراث الأدبي الجزائري وركزت بالخصوص على إبراز الامتداد الحضاري للجزائر إلى الحضارة الرومانية، جميلة وتيمقاد وشرشال سيرتا والكثير من المواقع التاريخية، التي تكشف عن التواجد الروماني، وحاولت التقريب بين شعوب المتوسط، لاختزال الماضي العربي الإسلامي، وإظهار الاستتقاص من الإنسان الجزائري من خلال موروث شعبي ساخر تم ترويجه بين المجتمع الجزائري²⁴.

المطلب الثالث:المعاهد الجامعية

لقد ساهمت جامعة الجزائر في تلك الأعمال العلمية الجماعية التي قامت بها البعثات العلمية أو اللجان أو الجمعيات المتخصصة، حيث قام أساتذتها ببحوث تخدم الإدارة الاستعمارية في الجزائر والمغرب العربي وإفريقيا، بل وفي المشرق العربي والإسلامي أيضا،كانت جامعة الجزائر والتي ترجع نواة تأسيسها إلى المدارس العليا سنة 1880، قد ظهرت إلى الوجود سنة 1909 ، وتطورت حتى أصبح الفرنسيون يسمونها السوربون الإفريقية، وكانوا يعتبرونها الجامعة الفرنسية الثالثة لارتفاع مستواها التعليمي، لأن فيها من الأساتذة من هم كبار المستشرقين في مختلف المجالات من أمثال ماسكري وباصيه وموران وفانيان²⁵.

وظهر معهد الدراسات الصحراوية عندما اهتمت الإدارة الاستعمارية بدراسة بأدب الصحراء وقد ضمّ أدباء وروائيين كل في مجال تخصصه، ومعهد الدراسات الشرقية الذي يعنى بالعالم العربي

والإسلامي، وهناك العديد من المعاهد التي كانت تحت إشراف الحكومة الفرنسية وتسعى لخدمة الأغراض الاستعمارية.

المطلب الرابع: البعثات العلمية ومشاركة المثقفين الجزائريين فيها

انطلقت الكثير من البعثات العلمية في الجزائر باتجاه الصحراء وإفريقيا، قادها فرنسيون مدنيين وعسكريين مسلحين بحب العلم والمعرفة وروح المغامرة والتطلع إلى الاكتشاف، وساعدهم في ذلك جزائريون من مثقفين وشيوخ زوايا وطرق صوفية، حيث كان بعض المدسوسين في الطريقة القادرية مثلا ينافسون بعض المدسوسين كذلك في الطريقة التيجانية في التقرب إلى فرنسا بمساعدة البعثات العلمية وتسهيل المهام لها. كما كانت هذه البعثات تقبل في عضويتها جزائريين من مزدوجي اللغة والثقافة.

ولعلّ أبرز ما قدمته هذه البعثات في المجال العلمي تلك الدراسات التي تناولت الطرق الصوفية والقبائل واللهجات الشعبية والأمازيغية والتربية والعادات والتقاليد، للاستفادة منها في التقدم نحو إفريقيا والسيطرة على الصحراء وثرواتها.

المطلب الخامس: الكنيسة والتنصير

اعتبر الفرنسيون سقوط الجزائر تحت الاحتلال سقوطاً لأبرز قلاع الإسلام، كما أن الحملة الفرنسية على الجزائر كانت امتداداً للحروب الصليبية، وتشير التقارير إلى أنّه من بين العسكريين الفرنسيين كان هناك رجال دين وقساوسة جاؤوا لمباركة الحملة واعتبروا القتلى الفرنسيين شهداء للمسيحية، وعندما تم توقيع معاهدة التسليم بين الداي حسين ودي بورمون القائد العسكري للحملة مخاطباً القساوسة: "إنكم أعدمت معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنا أمل أن تينع قريباً الحضارة التي انطفت في هذه الربوع...."²⁶

وبذلك بدأت الانطلاقة الحقيقية للسياسة الاستعمارية التبشيرية التي قادتها الكنيسة في الجزائر اتجاه المسلمين ودينهم، وكان المستشرقون هم الموجه للكنيسة يرسمون لهم الطرق لتحقيق الأهداف، فبعد مصادرة الأوقاف وتجفيف منابع التمويل للمؤسسات الدينية وتهديم المساجد وتحويلها إلى مستودعات وثكنات وكنائس، كتب أحد القادة العسكريين وهو فرنسيس مورال في كتابه الجزائر أو إفريقيا الفرنسية قائلاً: "منذ الاحتلال الفرنسي لاحظ الفرنسيون في المدن، ولاسيما العاصمة أن عدد المساجد فوق الحاجة، ولذلك حوّلوا عدداً منها إلى مستشفيات ومستودعات، وحتى كنائس كاثوليكية"²⁷.

وكانت هناك سياسة أخرى ترغّب الجزائريين في المسيحية كتقديم المساعدات والإعانات والطب مقابل الإيمان بالمسيح، وكتبت ايفون توران كتاباً في هذا الصدد عنوانته بالمواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة وبيّنت كيف كان رجال الدين والآباء البيض يقدمون التعليم والطب والعلاج للشعب الجزائري²⁸.

ولعل ما قام به الكاردينال لافيجري كان غاية في الذكاء والدهاء حيث استغل أوضاع المجتمع الجزائري نهاية القرن التاسع عشر وما ساد فيه من مجاعة وأمراض وأوبئة فتكت به، فصار يقدم المساعدات والطب ويعالج الناس باسم المسيح، كما حاول التأسيس لنواة مجتمع مسيحي جزائري مكون من فتيان وفتيات جزائريين توفيت أسرهم بسبب المجاعة، فجمعه بمخيمات بمدينة الشلف وقام بتوفير كل ما يلزمهم من رعاية وتعليمهم الديانة المسيحية²⁹.

خاتمة :

1/ إن اهتمام المستشرقين الفرنسيين بمكونات الهوية في المجتمع الجزائري بالدراسة والتحليل كان لخدمة الغايات الاستعمارية، وهو اهتمام يكاد فريدا من نوعه، كونه حاول أن يحل مجتمعا محل آخر وهوية محل أخرى، إنها محاولة إلغاء للعربية مقابل الفرنسية وإلغاء للإسلام في مقابل المسيحية، وللتاريخ الحضاري للمجتمع الجزائري، وكان ذلك لعزم الاستعمار الفرنسي على البقاء في الجزائر وجعلها امتدادا جغرافيا وجزءا لا يتجزأ منها، الأمر الذي ترتب عليه الاهتمام بالمجتمع الجزائري بكل مكوناته الثقافية وامتداداته التاريخية والحضارية دراسة وتأليفا.

2/ من الصعب أن نعد أعمال المستشرقين في الجزائر ومجالات اهتماماتهم، فقد درسوا المجتمع الجزائري في كل المجالات الممكنة والتخصصات المتاحة، واهتموا بالمعاجم واللسانيات والخطوط والنقوش، والتاريخ الديني وتحقيق النصوص والترجمة في ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافيا والفقه، بالإضافة إلى الأعمال الانثروبولوجية ودراسة الفلكلور والأدب الشعبي، وما قاموا به من دراسات سوسيولوجية، وبهذا أصبحت الجزائر منذ بدء الاستعمار منطلق الاستشراق الفرنسي، إذ وقعت وثائقها ومخطوطاتها وآثارها بين أيدي المستشرقين، فتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه، واستولوا عليها إلى يومنا هذا. كما أصبحت الجزائر محور الأعمال الاستشراقية الفرنسية في إفريقيا ومنطلقها بما يسمى بالمهمات العلمية في كل من تونس والمغرب والسنغال .

3/ خرج الاستعمار الفرنسي من الجزائر وبقيت آثاره التي لا تمحى، في الثقافة العربية الإسلامية واللهجة المستعملة في الجزائر، وإن زالت صورة الاستشراق التقليدية إلا أنه جدد أساليبه وحافظ على أطروحاته، وظل الفرنسيون يعتبرون الجزائر امتدادا تاريخيا لهم.

الهوامش:

¹ يحيى مراد، الرد على شبهات المستشرقين، من قاضايا الاستشراق بحوث ودراسات، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، القاهرة، ص 23.

² يحيى مراد، الرد على شبهات المستشرقين، من قاضايا الاستشراق بحوث ودراسات، ص 23.

الاستشراق والآخ في التراث الجزائري -قراءة حفرية-

- ³ محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، دار قتيبة، دمشق، ط2، 2002، ص 17.
- ⁴ البشير الابراهيمي، عيون البصائر، جريدة البصائر، ع 174، ليوم 1951/11/05، ص 01.
- ⁵ محمد فتح الله زيادي، الاستشراق وأهدافه ووسائله، ص 14.
- ⁶ أحمد أمين حسن محمد بن عامر، المستشرقون و القرآن الكريم، دار الأمل، أريد، ط1، 2004، ص 14.
- ⁷ نجيب القيسي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، دط، ص 138.
- ⁸ أبو القاسم عبد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، ج6، 2011، ص 07.
- ⁹ أبو القاسم عبد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص11.
- ¹⁰ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص14.
- ¹¹ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار المتون، الجزائر، 1998، ص 34.
- ¹² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 250.
- ¹³ حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1999، ص 211.
- ¹⁴ بقطاش خديجة: أوقاف مدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي، العدد 62، 1970، الجزائر، ص 136.
- ¹⁵ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 284.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص 285.
- ¹⁷ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 25.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 25.
- ¹⁹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 355.
- ²⁰ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 377.
- ²¹ حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ص 157.
- ²² حسن محمد خليفة، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ط2، 1989، ص51.
- ²³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 212.
- ²⁴ أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1996، ج4، ص 43.
- ²⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص 58.
- ²⁶ مختار بن قويدر، الجزائر ومعركتها الثالث المدمر التتير والاشتراف والاستعمار، دار الكشاف، الجزائر، 2003، ص 55.
- ²⁷ عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ من العصر القديمة وحتى سنة 1945، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2011، ص 96.
- ²⁸ عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ من العصر القديمة وحتى سنة 1945، ص 62.
- ²⁹ المرجع نفسه، ص 64.

قائمة المراجع:

- 1/ يحيى مراد، الرد على شبهات المستشرقين، من قضايا الاستشراق بحوث ودراسات، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، القاهرة.
- 2/ محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، دار قتيبة، دمشق، ط2، 2002،
- 3/ البشير الابراهيمي، عيون البصائر، جريدة البصائر، ع 174، ليوم 1951/11/05.

- 4/ أحمد أمين حسن محمد بن عامر، المستشرقون و القرآن الكريم، دار الأمل، أريد، ط1، 2004 .
- 5 نجيب القيقى ،المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، دط.
- 6 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،عالم المعرفة، الجزائر، ج6، 2011
- 7/ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار المتون، الجزائر، 1998
- 8/ حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1999..
- 9/ بقطاش خديجة: أوقاف مدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي، العدد 62، 1970 ، الجزائر .
- 10/ حسن محمد خليفة، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ط2، 1989.
- 11/ أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1996،
- 12/ مختار بن قويدر، الجزائر ومعركتها الثالث المدمر التنصير والاستشراق والاستعمار، دار الكشف، الجزائر، 2003.
- 13/ عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ من العصر القديمة وحتى سنة 1945، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2011.